أدب الشتاء

الاستاذ محمد سيد كيلاني

حسبك أن تندس فى اللحاف وخشية البرد على الاطراف
« ابن وكيع التنيسى »

— ٢ —

يرغم الناس فى فصل الشتاء على الدخول فى حرب مع الطبيعة فمنهم الفقير الضعيف الذى لا يطيق بلاء هذه الحرب ، فيشكو ويتألم ، ويسخط ويتبرم ، حتى يتمنى لو فتحت له أبواب جهنم ليدخل فيها هربا من شدة البرد وقسوته ، قال أحد الشعراء :

أيارب هذا البرد أصبح كالحا وأنت بصير عالم ما تعـــلم
لئن كنت يوما فى جهنم مدخلى فنى مثل هذا اليوم طابت جهنم

لقد كاد الشاعر يتجمد من شدة البرد ، وأنساه هذا الهول ما يمكن أن يلاقيه من عذاب النار . فتضرع إلى الله أن يعجل بإدخاله جهنم ، فهى عنده مكان صالح لأن يعيش فيه بعيداً من بطش البرد الذى كاد يفتك به

وهذا شاعر آخر يتمنى لو مات واستراح من عناء الشتاء وآلام البرد . قال :

فليت هذا الشتاء الصعب مذ وقعت عينى عليه افترقنا فرقة الأبد
برد لو ان الورى جاءت تبايعنى على الخلافة لم أقدر أمد يدى

وفى هذا من المبالغة ما فيه . فالشاعر مع شدة فقره وعظيم

لو أن أم عمارة كانت تقاتل مسيلمة انتقاما منه لقتله ابنها حبيب لهان الأمر ، ولكنها والله إنما جاءت لتقاتل فى سبيل الله ولتكون كلمة الله هى العليا

لهذا فهى تضارب القوم ، وهذا شاب مغامر قد انفلت من شرذمة الباطل ، وامتدت يده بالسيف إلى أم عمارة ، يريد أن يزيل هامتها فأخلفته فاهوى إلا أن طارت يدها فى الهواء ، والجراح موزعة فى أجزاء جسمها ، والدماء تنزف منها على غير هدى ، وإذا بها ترى ابنها يمسح سيفه بثيابه ، ونظراته تشير إلى مصرع عدو الله مسيلمة ، فانشق الدم المدرار عن بسمة من ثغرها ، وسجدت لله الذى جعل مصرع ذاك الخبيث على يد ابنها ، حتى انطوت فى لحظة واحدة مائة وخمسون سنة قضاها مسيلمة يحارب الله ورسوله ويفتن المستضعفين ، ويعذب المؤمنين ، ويصد عن السبيل ، ويحسب أنه من المهتدين

وانطفأت فتنة الكذاب ، وأخذت الدعوة سبيلها إلى القلوب وامتدت إلى الأمصار ، وأم عمارة سيدة المجاهدات المسلمات ، لم تثنها ضربة يوم أحد عن خوض غمار حرب يوم اليمامة ، ولم يصرفها قتل ابنها حبيب عن دفع ابنها الوحيد عبد الله إلى الميدان ، وما كان الجرح الغائر فى عاتقها الذى لقيته من ابن قمئة ليصدها عن محاربة مسيلمة

استرخصت أم عمارة الحياة الدنيا فى سبيل الحياة الآخرة ، وأرادت العزة فوهبتها عزيز الروح ، وعاشت دهرا بعد أن تقطعت يدها يوم اليمامة ، ورجعت وفى جسمها اثنا عشر جرحا ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، وكأنها اثنا عشر نجما تتلألأ فى السماء ، فتنير ظلام البدن بشرف الروح

وجعل الناس يعودونها ومعهم مرضاهم لتستشفى لهم ، ويتلمسوا منها البركة ، فتمسح بيدها الشلاء على موضع العلة ، وتدعو ببعض كلمات كانت تسمعها من رسول الله ، فما من عاهة مسحت عليها بيدها إلا برئت بإذن الله

وصار كل من يرى أم عمارة لا يستطيع أن يخفى إعجابه من قلبها هذا الحديدى ، وقد امتلأ أمنا وإيمانا ، ولا أن يخفى عجبه من هذه الجراحات الموزعة فى ظاهر جسمها ، وكلما سأل سائل عن ذلك ، قالت :

« يوم اليمامة تقطعت يدى وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لى ناهية حتى رأيت الخبيث مقتولا » وإذا بابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه فقلت له : أقتلته ؟ قال : نعم . فسجدت لله شكرا »

وكان جديرا بأم عمارة أن تلقى التكريم من كل من جلس إليها ، وتأمل آثار جهادها ، ولكن ما كان أسعدها حين يردد الناس على سمعها قول النبى الكريم ، وما أصدقه وأبلغه وأحكمه : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة !

محمد محمود زيتون

احتياجه إلى ما يدفع عنه غائلة الشتاء يقول لو أن الناس ذهبوا ليبايعوه بالخلافة لما استطاع من قسوة البرد أن يمد يده ويتقبل البيعة

وهذا شاعر آخر يصف ليلة من ليالى الشتاء فيقول

فنحن فيها ولم نخرس ذوو خرس
ونحن فيها ولم نفلج مفاليج

وحسبك هذا النظر . قوم جمدوا فى أماكنهم من شدة البرد فكأنهم قد أصيبوا بالخرس والشلل فلا يستطيعون كلاما ولا حركة

وهكذا تنافس الشعراء فى اختراع الصور وابتكار المعانى التى تترجم عن مشاعرهم المختلفة ، وإحساساتهم المتباينة أمام هذا العدو الجبار وهو البرد

* * *

وفى الشتاء كما ذكرنا يكثر أدب الشكوى والسخط والتبرم بالفقر . وذلك لأن متاعب الفقر تظهر فى هذا الفصل ، فيشعر المعدمون بوطأة الحياة عليهم ، ويتألمون ويتضجرون ومثال ذلك قول أحدهم :

قيل ما أعددت للـ برد وقد جاء بشده
قلت دراعة عرى تحتها جبة زعده

وهذا شاعر متصوف يقول :

جاء الشتاء وليس عندى درهم ومثل هذا قد يصاب المسلم
ليس الطلوح خزوزها وقراءها وكأننى بفناء مكة محرم

وأكثر ما يظهر حسد الفقراء للأغنياء فى هذا الفصل الذى تعرف فيه قيمة الثراء حق المعرفة . وقد يمزجون الشكوى من الشتاء بالتهكم المر والسخرية اللاذعة والدعابة المؤلمة . ومثال ذلك قول أحدهم :

لى من الشمس حلة صفراء لا أبالى إذا أتانى الشتاء
ومن الزمهرير إن حدث الغيـ ـم ثيابى وطيلسانى الهواء
بيتى الأرض والسماء به سو ـر مدار وسقف بيتى السماء
فكأن الإصباح عندى لما فيـ ـه حبيب رقيبه الإمساء

فانظر كيف صور الشاعر نفسه ، وكيف فرج عن آلامه المكبوتة بهذه الدعابات وكيف وصف ما يعانيه من العرى فى هذه الصورة الساخرة . فهو لا يحفل بالشتاء ولا يعبأ بالبرد . فإن طلعت الشمس اتخذ منها ثيابه ، وإن احتجبت استعاض عنها بالغيم والهواء والفضاء سكنه . فكأنه يعيش على مذهب العراة الذى نسمع به فى هذه الأيام

وانظر إلى أبى الحسين الجزار حين يقول :

لبست بيتى وقد زورت أبوابى على حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتا ما كان من حمق دعنى فستوقد الحمام أولى بى
ما كنت أعرف ما ضرب المقارع أو
قاسيت وقع الندى من فوق أحبابى

فالبيت الأول يكشف عن خفة الروح التى اشتهر بها هذا الشاعر . فهو لفقره وعدم توفر الملابس لديه اضطر إلى أن يتجرد من أثوابه ويحبس نفسه فى منزله حتى تغسل ملابسه وتجف . وقد عانى من ويلات البرد ما جعله يخنع ويستكين ويفضل أن يلقى بنفسه فى مستوقد الحمام لأن وطأة البرد عليه كانت أشبه بضرب المقارع

* * *

وبجانب هذا الأدب الذى يعبر عن الشكوى والسخط ، نجد أدباً آخر يصور حياة الأغنياء فى هذا الفصل وما فيها من ترف ونعيم . فهو عندهم فصل محبب إلى النفس ، إذ يقبلون فيه على الخمر والكباب والنساء ، والسماع والرقص . قال أحدهم :

نعم الشتاء وحبذا زمن الهنا والراحة
طاب العناق به إذا دار الحبيب براحتى

وقال الخوارزمى :

أعد الورى للبرد جندا من الصلا
ولاقيته من بينهم بجنود
ثلاث من النيران : نار مدامة
ونار صبابات ونار وقود

فهذا هو شعور الأغنياء نحو الشتاء . فهو عندهم فرصة للتمتع بالمشروب والمأكول والملبوس والملموس . وكانوا يسمون لوازم الشتاء « كافات » . وهى عندهم سبعة تضمنها قول الشاعر :

جاء الشتاء وعندى من جوائحه
سبع إذا القطر عن أوطاننا حبسا

كن وكيس وكانون وكأس طلا
مع الكباب وكف ناعم وكسا

الكن أى المنزل والكيس كناية عن النقود . وكف ناعم كناية عن المرأة ، والسعيد هو الذى تتوفر لديه هذه النعم

وكثيراً ما شكا الفقراء من حرمانهم من تلك الكافات . قال أحدهم

جاء الشتاء وما الكافات حاضرة
وإنما حضرت منهن أبدال
قل وقر وقلب موجع وقلا
وقادر هاجر والقيل والقال

وقال آخر :

لا الكاف عندى ولا الكانون متقد
كنى ظلامى وكيسى قل ما فيه
دع الكباب وخل (الكف) وا أسفا
على كسا أتغطى فى دياجيه

فمن هنا نرى أن الشتاء يوحى بنوعين من الأدب يناقض أحدهما الآخر ؛ فالأول أدب الفقراء الذى يصور ما يلاقيه الفقير من البؤس والضنى والجوع والعرى . وإحساس الفقير بالحاجة إلى الغذاء والكساء فى فصل الشتاء أشد منه فى أى فصل آخر. وذلك لحاجة الجسم إلى طاقة معينة من الحرارة لا يحصل عليها إلا إذا توفرت لديه الملابس الصوفية والمواد الدهنية . وبغير ذلك يتعرض الناس للموت ولأمراض الشتاء المختلفة . لذلك كان هذا النوع من الأدب صادقا إلى أبعد حدود الصدق . أما النوع الآخر فهو الذى يصور حياة الأغنياء وما فيها من لهو وعجون وعبث وخلاعة وتفاخر بالأموال والثمرات . فليالى الشتاء عندهم مواسم وأعياد

* * *

وفى الشتاء تكثر البراغيث بين الطبقات الفقيرة . قال ابن وكيع التنيسى :

حتى إذا ما ملت للرقاد عت على فرش من القتاد
إن البراغيث عذاب مزعج لكل ما قلب وجلد تنضج
لا يستلذ جنبه المضاجعا كأنما أفرشته مباضعا

فانظر كيف صور الشاعر ليالى الفقراء فى هذا الفصل . فبينما هى فرصة طيبة للهو والخلاعة عند الأغنياء ، إذا هى جحيم لا يطاق عند الفقراء . برد شديد ، وبراغيث تطرد النوم عنهم فى غير رحمة فلا عجب إذا تبرم الفقراء بطول الليل وتضجروا . فى حين أن الأغنياء يجدونه — على طوله — قصيرا

وهذا شاعر آخر يزعم أن للبرغوث فوائد ومزايا . وقال :

لا تكره البرغوث إن اسمه برغوث لك لو تدرى
فيه مص دم فاسد والغوث إيقاظك فى الفجر

وهذا من وحى الجهل نعوذ بالله من شره

* * *

وكان من الناس من يعجزهن تأدية فريضة الصلاة ، وبخاصة صلاة الصبح ، وذلك لشدة البرد . قيل لأعرابى : أما تصلى فى الشتاء ؟ قال : البرد شديد ، وما على كسوة أصلى فيها . وأنشد :

إن يكسنى ربى قميصا وريطة أصلى وأعبده إلى آخر الدهر
وإن لم يكن إلا بقايا عباءة محرقة مالى على البرد من صبر

فى الشتاء تصعب الصلاة ويسهل الصيام . وهناك أحاديث رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مدح الشتاء منها قوله عليه السلام : الشتاء ربيع المؤمن ، قصر نهاره فصامه ، وطال ليله فقامه

* * *

وكانوا لشدة البرد يكثرون من الذهاب إلى الحمامات العامة التى كانوا يسمونها « بيت النار » وقد وصفها الأدباء شعرا ونثرا وأتوا فى ذلك بالمعانى الطريفة والصور اللطيفة كما سنرى فى غير هذا المقال . وكان للأغنياء حماماتهم الخاصة ، يدعون إليها المقربين لديهم من الأدباء ، ويقضون فيها وقتا طويلا متجردين من برقع الحياء

***

وفى الليل يلتفون حول المواقد ، ويتناشدون الأشعار ، ويستمعون إلى القصص والحكايات والملح والنوادر ويتنافسون فى نظم المقطوعات التى تتناول وصف المواقد وما فيها من جمر